مشكلات الكتاب العربي

من التأليف إلى القراءة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، ونشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن سيدنا محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم،

أما بعد،

فإن موضوعنا هذا هو عن «مشكلات الكتاب العربى من التأليف إلى القراءة».
ولا شك أن الحديث عن الكتاب العربى حديث هام، كيف لا، وقد كان الكتاب وسوف يبقى وعاء الثقافة الرصينة والفكر المستقر، ومهما تعددت أوعية الثقافة ووسائلها فسوف تبقى للكتاب مكانته.

ثم إننا نقصد فى حديثنا هذا المعنى الواسع لكلمة كتاب، فالفعل كتب يعنى دوَّن أو سجل، وعلى هذا فإن كلمة كتاب يمكن أن تتسع لتشمل كل ما هو مكتوب أو مدون أيا كان الشكل الذى ظهر عليه، وسوف نجد فى هذا الصدد أشكالا متعددة مثل المواد المطبوعة: الكتاب، والمجلة، والتقرير، والصحيفة، إلخ، وأشكالاً غير مطبوعة مثل الأشرطة والأفلام، وغيرها. وعلى ذلك، فإن كلمة مكتبة بهذا المفهوم يمكن أن تتسع لتشمل كل أنواع المكتبات.

والكتاب بهذا المفهوم الشامل يستوعب كل مصادر المعرفة والمعلومات ونريد من هذا التوضيح بيان أمرين فى الغاية من الأهمية بالنسبة لموضوعنا:

أولهما: أن المشكلات التى سوف نتحدث عنها مشكلات عامة تصدق على الكتاب كما تصدق على غيره من مصادر المعلومات.. ولما كان الكتاب هو الوسيلة الأقدم، فإن ما يصدق عليه يصدق بصورة أكثر حدة على غيره من المواد.

وثانيهما: أن مصادر المعلومات هى أوعية العلم والثقافة والفكر، ولذلك فإن الحديث عن مشكلاتها هو حديث عن هموم العلماء والمثقفين والمفكرين؛ فإن المشكلات التى يعانى منها هؤلاء تؤثر فى دورة الانتاج الفكرى.

أي أن حديثنا سوف ينصب علي مشكلات العلم والثقافة والتعليم والبحث التي هي نفسها مشكلات الكتاب العربي، وهي جميعا قضايا حيوية لأنها ركائز الحياة في العصر الحديث.

ومما يزيد في أهمية الموضوع أننا نعيش الآن عصر المعلومات، فقد أصبحت المعلومات تلعب دورا هائلا في كل مجالات الحياة. وليس معني هذا أن المعلومات لم يكن لها نفس الدور في الماضي؛ فالمعلومات كان لها دور حيوي في كل عصور الحضارة. وقد كانت الحضارة الإسلامية حضارة كتاب، فمعجزة الرسول ﷺ هي القرآن الكريم، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ونتاج هذه الحضارة علوم وكتب ملأت الدنيا شرقا وغربا.

لكننا نقصد بعصر المعلومات تعاظم الدور الذي تلعبه المعلومات في الوقت الراهن؛ فالعصر عصر العلم، أي أن الإنسان قد اعتمد المنهج العلمي أساسا لحل مشكلاته في جميع المجالات: السياسية، والاقتصادية، والصناعية، إلخ، كما أصبح يعتمد علي العلم والمعلومات في اتخاد القرارات. ومما لا شك فيه أن المعلومات هي إحدي الركائز الأساسية للدول المتقدمة، كما أن نقصها أو القصور في انسيابها وتنظيمها من الأسباب الرئيسية لتخلف الدول المتخلفة.

وإزاء أهمية الموضوع من ناحية وضخامة المجال من ناحية ثانية فسوف نركز علي القضايا العامة دون الدخول في التفاصيل الدقيقة حتي لا نتجاوز حدود الحيز.

أبعاد الإنتاج الفكري العربي

يمكن أن نحدد مجالات أو ابعاد الانتاج الفكري العربي علي النحو الآتي:

١ـ **المادة التي ظهر عليها الإنتاج الفكري العربي**؛ وتشمل هذه المواد المطبوعة مثل الكتب والمجلات والتقارير والرسائل الجامعية، إلخ، والمواد غير المطبوعة مثل الأشرطة والأفلام وغيرها.

وقد سبقت الإشارة إلي هذه النقطة.

٢ـ **البعد اللغوي**؛ ويشمل ما يأتي:

أ ـ ما كتب باللغة العربية لغة العرب سواء نشر داخل البلاد العربية أم خارجها.

ب ـ ما كتبه عرب بلغات أجنبية سواء نشر بالبلاد العربية أم خارجها.

وبديهي أن ما كتبه العرب حتي ولو كتب بلغات غير العربية هو إنتاج فكري عربي نسبة إلي العرب لا نسبة إلي العربية لغة العرب. ومن المعروف أن كثيرا من المؤلفين وخاصة في المجالات العلمية يفضلون نشر إنتاجهم في المجلات الأجنبية وبخاصة المجلات التي لغتها الإنجليزية. ولهذا الاتجاه أسباب متعددة، منها ان يُقْرَأَ الكاتب، وأن يؤخذ إنتاجه بعين الاعتبار عند تقويمه (الكاتب)، وأن يلفت إنتاجه القراء في بلاد غير بلده، وأن يتفادي مشكلات التعريب والمصطلحات، إلخ.

والإنتاج الفكري العربي في المجالات العلمية، مثل الطب والكيمياء، إلخ، كثير باللغة الإنجليزية، ومن الضروري أخذه في الحسبان عند الحديث عن مشكلات الانتاج الفكري العربي.

٣ـ **البعد الجغرافي**؛ ويشمل الدوائر الآتية:

أـ الدائرة القطرية؛ مثل المملكة العربية السعودية أو الكويت أو مصر او سوريا.

ب ـ الدائرة العربية؛ وتشمل الوطن العربي كله.

جـ ـ الدائرة الخارجية؛ وتشمل العالم الخارجي.

ومن الواضح أن البعدين اللغوي والجغرافي مرتبطان أشد الارتباط.

٤ـ **البعد الزمني**؛ ويشمل الانتاج الفكري العربي طوال أربعة عشر قرنا هي عمر التأليف باللغة العربية. هذه القرون اختلفت فيها حالة الإنتاج الفكري العربي من عصر إلي عصر؛ ففي عصر إزدهار الحركة العلمية في العالم الاسلامي لم يكن هناك نفس المشكلات التي نعاني منها الآن. ثم انتقل زمام الحضارة والعلم إلي الغرب فتقدم العالم الغربي تقدما كبيرا كان له أثره بطبيعة الحال علي الانتاج الفكري.

ثم بدأت حركة الاصلاح في العالم العربى والاسلامي في العصر الحديث في محاولة لسد الفجوة الحضارية التي تفصلنا عن العالم المتقدم، ووجدنا أن من الضروري أن نبدأ من جديد لتعويض التخلف، وهنا ظهرت المشكلات التي سوف نتحدث عن بعضها فيما بعد ومن أهمها مشكلة تعريب المصطلحات.

ورغم أن المشكلات القائمة حاليا هي من نتاج العصر الحديث إلا أن ثمة جانبا هاما يجدر الالتفات إليه وهو قضية التراث كنتاج فكري ومادي لعصر الحضارة الإسلامية الزاهر، وهي قضية تشغلنا كثيرا وهي علاقة هذا التراث بالحاضر والمستقبل، أو ما يعرف بقضية الأصالة والمعاصرة. وسوف نعالج هذه القضية في حينها.

دورة الانتاج الفكري

ليس من أهدافنا هنا أن نتعرض لدورة الانتاج الفكري بالتفصيل، وحسبنا أن نشير فقط إلي أن هذه الدورة تبدأ بإنتاج مصادر المعلومات وتنتهي بالقارئ أو المستفيد، وأن هذه الدورة تمر بالمراحل الآتية:

١ـ تأليف الكتاب.

٢ـ النشر والطباعة.

٣ـ توزيع الكتاب وبيعه.

٤ـ وصول الكتاب إلي القراء عن طريق الشراء، أو وصوله إلي مؤسسات المعلومات.

٥ـ تنظيم مصادر المعلومات في المكتبات.

٦ـ الاستفادة من مصادر المعلومات في البحث أو في التثقيف أو في التعليم، إلخ.

ثم تعود الدورة من جديد. وكلما زاد عدد المؤلفين كلما زاد كم الانتاج

الفكري، كلما زاد عدد المكتبات وزادت مجموعاتها من الكتب ومواد القراءة الأخري. وهذا بدوره يؤدي إلي زيادة عدد القراء، ومن ثم زيادة عدد المؤلفين لتسرع من جديد دورة الانتاج الفكري.

وسوف نعود إلي هذه النقطة فيما بعد، وربما في أكثر من مناسبة عند الحديث علي قضية الأمية وأثرها في ضعف الانتاج الفكري العربي، ثم قضية الترجمة وعلاقتها بضخامة الانتاج الفكري المنشور.

وأجد من المناسب قبل أن أتحدث عن كل مرحلة من المراحل السابقة أن أتحدث عن المعوقات التي تعوق العمل العلمي والحركة العلمية إجمالا، وذلك أن التأليف والترجمة وغيرهما من عناصر المسئولية عن الأعمال العلمية تتأثر بالعوامل التي تؤثر في الحركة العلمية إجمالا، وهذا ينصب بدوره علي إنتاج الكتاب. ولذلك فيحسن أن نبدأ بالعوامل المشتركة التي تعوق الحركة العلمية.

وأعيد إلي الأذهان ما ذكرته في المقدمة من أن مشكلات الكتاب العربي هي مشكلات العمل العلمي والثقافي بصفة عامة، لأن الكتاب هو نتاج العقل وثمرة الفكر وحصاد العمل العلمي، وكل ما يؤثر علي العلم والفكر والثقافة - إن سلبا وإن إيجابا - يؤثر علي إنتاج الكتاب، فالحديث عن معوقات العمل العلمي هو نفسه حديث عن مشكلات إنتاج الكتاب وتفشيه وانسيابه وتداوله. أما المشكلات التي يختص بها الكتاب نفسه فسوف نتحدث عنها عند الحديث عن مشكلات صناعة الكتاب.

مشـــكلات العمـــل العلمى
ومعـوقاتـه فـى الـوطـن العـربـى

١ تفشى الأمية[١]

الباحثون والعلماء والمثقفون هم إفـراز طبيعي للمجتمع المتعلم القارئ. ولذلك فإنه كلما أتسعت قاعدة التعليم وكلما زاد عدد المتعلمين كلما زاد عدد القراء، كلما زاد عددالعلماء والباحثين والمثقفين، وهذا يؤدي إلي زيادة التأليف والمؤلفين، وهذا بدوره يؤدي إلي تسارع دورة التأليف أو دورة الإنتاج الـفكري التي أشرنا إليها من قبل.

ومما لا شك فيه أن زيادة نسبة الأمية في مجتمع من المجتمعات يؤثر تأثيرا سلبيا علي دورة التأليـف والانتاج الفكري. ولا شك أن تفشي الأمـية في مـعظم أجزاء الوطن العربي هو أحد الأسـباب الرئيسية التى تعوق الـعمل العلمى والتأليف وهذا يتضح من دراسة سريعة لبعض إحصاءات الانتاج الفكري.

تقول إحصاءات اليونسكو[١] (Statistical Yearbook) أن إنتاج العالم من الكتب كان في سنة ١٩٥٣ : ٢٦٩٠٠٠ كتابا في السنة، وقـفز في سنة ١٩٦٥، أي بعد اثنتي عشرة سنة إلي ٤٢٦٠٠٠ كتـابا في السنة، أما في سنة ١٩٧٧ فقـد قفز إلي ٥٩١ ألف كتـابا في السنة. أي أنه خلال أقل مـن ربع قرن تزايد إنتاج الـعالم من الكتب بما يزيد عن الضعف. وهذا يدل علي تسارع دورة الانتاج الفكري.

ومما يذكـر أن أقل من خمس هـذا الانتاج فـقط يجئ من العـالم الثالث حـيث

---

(١) أثناء إعـداد نص هذه المحاضرة نشر في جـريدة الوطن بالكويت بتاريخ ١٦/ ٥/ ١٩٩٠ أن دراسة صادرة عن منتدي الفكر العربي بعمان حـول مستقبل التعليم بالوطن العربي ـ كشفت عن أن نسـبة الأمية ما تزال تشكل ٥٠٪ بالوطن العربي، كما أوردت الدراسة أن عـدد الأميين يتزايد إذا أضيف إليهم نسبة ١٠٪ يصنفون علي أنهم يلمون بالقراءة والكتابة ولكن هذا لا يعني سيطرتهم علي مهارات القراءة والكتابة.

يعيش ثلثا سكان العالم[1]. وهذا يدل علي ضعف إنتاج الـكتب في الدول النامية بسبب معوقات العمل العلمي والتي من أبرزها بلا شك تفشي الأمية.

كذلك يمكن مقارنة إنتاج مصر وهي أكبر الدول العربية بإنتاج بعض الدول التي تقـاربها في عـدد السكان، مثل بريطانيـا. سوف نجـد أن إنتاج بريطانيـا يصل إلي أربعين ألف كتابا سنويا، في حين يصل الانتـاج الفكري المصرى في أحسن حالاته إلي خمســة آلاف كتابا في المتوسط. وليست هذه الآلاف الخـمسة كلها كتبـا مؤلفة وإنما تضم كتبا مترجمة، وكتبا تراثية ليست من إنتاج العصر الحديث. أما من حيث القيمة العلمية فإنها تضم كتبـا دراسية وكتبا مدرسية، إلخ؛ ولكننا لا نريد الحديث عن هذا الآن وإنما نكتفي فقط بالاحصائيات البسيطة.

فإذا كان هذا هو حال مصر وهي أكبر أقطار الوطن العربي وأكثرها إنتاجا، فإننا يمكن أن نسـتنج أن إنتاج الوطن العـربي في مجـمله أقل بكثيـر مما تؤهله إمكاناته البـشرية والماديـة وعدد الجـامـعات، إلخ. وهذا يدل علي ضـعف هذا الانتـاج. وسوف نعود إلي هذه النقطة فيما بعد.

٢ عدم كفاية النظام التعليمي

رغم أنني أعــمل في حـقل التـعليم الجـامعي منذ ثـلاثين سنة، إلا أنني لستَ متخـصصا في مجـال التربية، ومما لاشك فيـه أن التربويين أقدر مني علي مـعالجة قضية كفاية النظام التعليمي في الوطن العربي من عدمه.

ورغم ذلك، فإننا ممكن أن ننظر إلي الموضوع من زاوية أخري، فلو افترضنا أن نجاح أو فشل النظام التعليمي يمكن قيـاسه من خلال رصد النتائج، فإن من السهل أن نسـتنتج أن النظام - أو النظم التـعليـمـيـة في الوطن العـربي لم تنجح في أداء رسالتـها. ولو أن هذه النظم نجحت في أداء رسـالتها لما كـنا الآن علي الحال التي نحن عليهـا - أقصد الـضعف الذي تتسم به جـوانب حياتنا، ذلك أن الـتعليم هو أساس كل تقدم وركيزة كل إصلاح.

---

(١) Donald Davison , Bibilgraphic Control. 2nd ed, 1981. p. 7 - 8.

ومن المعروف أن كل أمة لها فكر أوفلسفة أوعقـيدة تشكل أساس حياتها وركيزة وجودها، وأن كل أمـة تحول فكرها إلي أهداف تسعي لتـحقيـقها، ثم تعهـد بهذه الأهداف إلي مؤسساتها المختلفة لكي تحولها إلي استراتيجيات ووظائف لتحقيق هذه الأهداف.

ويأتي في مـقدمـة المؤسـسات التي يناط بهـا تحـقيق أهداف الأمـة المؤسسـات التعليمية والعلـمية والإعلامية ومؤسسات المعلومـات والمكتبات، وهي أركان أربعة لأية نهضة: تعليم وعلم ومعلومات وإعلام، وكلهـا مشتقة من فعل ثلاثي واحد: عَلِمَ. وسوف نفرد العلم والمعلومات بحـديث منفصل. وأما الإعلام فإن دوره هو أن يهيئ الشعب ـ من خلال وسائل الإعلام المختلفة ـ للقيام بالدور المنوط بالأمة.

ويبقي دور المؤسـسات التـعليمـية من مدارس وجـامعات، ودورهـا هو صناعة العقـول، وهو أهم دور لمؤسسات الدولة، لأن صـناعة البشـر أصعب من أى شئ آخر. والإنسـان يصنع، فالمولي جلت قدرته يخـاطب موسي عليه السـلام بقوله: **﴿ولتصنع عـلى عيني﴾**؛ والرسـول المصطفى ﷺ يقـول عن نفـسـه «**أدبني ربي فأحسن تأديبي**» ولكي تؤدي المؤسسات التعليمية دورها في المجتمع فلابد أن تتحول المدارس والجامعات إلي مصانع للعقول.

والحالة التي عليها معظم الدول العربية الآن تدل علي أن المؤسسات التعليمية لم تؤد دورها علي الوجـه الأكمل، مع أن أي حـل يجب أن يبدأ مع إصـلاح النظام التعلـيمي من خلال فكر تربـوي يشتق أهدافه من فـكر الأمة العربيـة الإسلامـية ويسعي إلي تحقيق هذه الأهداف امتثالا لقول الحق تباك وتعالي:

﴿كنتم خـير أمة أخـرجت للناس تأمـرون بالمعـروف وتنهون عـن المنكر وتؤمنون بالله﴾.

فالأمة العربية الإسـلامية لها رسالتها في العالم، فـهي خير أمة أخرجت للناس ولكن تناسي هذه الرسالة أو نسيـانها، والتماس شخصـية أخري في هذا الفكر أو ذاك يبعدها عن الطريق القويم وهو السبب فيما آلت إليه أحوالنا.

٣ غياب التنظيم العلمي

الواقع أن هناك عدة قضايا مترابطة تتعلق جميعا بالعلم والبحث العلمي وتتناول جوانب مختلفة للعمل العلمي، وسوف أتحدث عنها تباعا.

وأبدأ هنا بقضية غياب التنظيم العلمي باعتبارها أحد معوقات النهضة العلمية.

يقصد بالتنظيم العلمي أن يكون هناك خطة شاملة Master Plan للبحث العلمي علي مستوي الدولة. والمقصود بالخطة الشاملة خطة تحصر القضايا والمشكلات وتضع برامج زمنية وتنفيذية لبحث هذه المشكلات وتحقيق الانجازات في كافة الميادين العلمية والتقانية[1]: Scientific and Technological أي أن مجرد وجود مركز للبحوث العلمية والتقانية هنا أو هناك لا يكفي بل لابد من وجود خطة شاملة للبحث العلمي علي المستوي الوطني.

والحق أن قضية البحث هي من أهم عوامل التقدم في المجتمع الحديث. فالعصر الذي نعيشه الآن هو عصر العلم والتقانة، والتقدم العلمي هو أساس الصراع والمنافسة بين الكتل الكبري، بل وفي داخل كل كتلة، فكل دولة من الدول المتقدمة تدخل مع غيرها سباقا لا هوادة فيه؛ كذلك الذي يحدث بين الولايات المتحدة وكل من ألمانيا واليابان، أو بين ألمانيا وفرنسا، بل إنه في داخل الدولة الواحدة تتنافس الشركات الصناعية الكبري فيما بينها في كل مجال من مجالات الصناعة؛ مثال ذلك صناعة الطائرات أو السيارات أو الحاسبات الالكترونية، وهي تتنافس في الوصول إلي أحدث المبتكرات حتي تسبق غيرها إلي غزو الأسواق العالمية لكي تحقق ما تصبو إليه من ربح.

---

(١) كلة تقانة هنا تقابل كلمة Technology ومنها تقانية اي تكنولوجية. وقد درج الكتاب والمتحدثون علي أن يستعملوا كلمة تقنية أو كلمة تكنولوجيا. وكنت افعل ذلك أيضا حتي سمعت حديثا للشيخ علي الطنطاوي في تليفزيون الرياض ذكر فيه كلمة تقانة كمقابل بدلا من كلمة تقنية، وهي علي وزن صناعة، وأقنعني هذا الشرح واعجبني هذا الاشتقاق واستخدمتها لأول مرة في كتاب ترجمته وقت أن كنت أعمل بالرياض وهو : تنظيم المعلومات في المكتبات ومراكز التوثيق، وجاءت الكلمة في عنوان الفصل الحادي والعشرين وهو عن لغات التكشيف في العلم والتقانة وقد صدر عن دار العلوم بالرياض سنة ١٩٨١.

وعلي مستوي الدول النامية فليس أمامها من طريق إلا أن تتبني طريق العلم وسيلة لحل مشكلاتها، وذلك لتعويض التخلف وسد الفجوة الهائلة التي تفصلها عن الدول المتقدمة. وما لم تسرع هذه الدول خطاها فإن هذه الفجوة سوف تتسع ولا تضيق لأن الدول المتقدمة تملك إمكانات التقدم أكثر من الدول النامية ولذلك فهي تتقدم بمعدلات أكبر، وعلي الدول النامية إذا أرادت اللحاق بركب التقدم أن تسرع في معدلات التقدم، ولا يتم هذا إلا من خلال التنظيم العلمي ومن خلال التغلب علي كل العوائق الأخري التي ذكرناها في هذه المحاضرة.

٤ عدم كفاية مساهمة الدولة

إذا كنا قد اتفقنا علي أن السبيل الوحيد أمام الأمم النامية هو تبني العلم وسيلة للتقدم، فمعني ذلك أن الدولة في هذه الأمم يجب أن ترصد لذلك الميزانيات الملائمة. ومن الحقائق المسلمة الآن أن المال الذي ينفق علي التعليم والعلم وما يتبعهما من مؤسسات هو استثمار بل يمكن القول أنه أفضل استثمار. ولذلك نجد أن الدول المتقدمة تخصص جزءا غير يسير من ميزانياتها للبحث العلمي. كما أن البحث العلمي في الدول المتقدمة لا تنفرد به الدولة بل تقوم به أيضاً الشركات والمؤسسات الصناعية والاقتصادية المختلفة.

فإذا انتقلنا إلي الأوضاع في الوطن العربي، فسوف نجد أن البحث العلمي يتأخر كثيرا في سلم الأولويات حيث يسبقه كثير من المجالات في كثير من الدول العربية، ويعد في بعض الدول نوعا من الترف دون عائد حقيقي. ولذلك فمن الضروري أن تتغير نظرة الدولة إلي التعليم والبحث العلمي وأن ترصد الامكانات اللازمة التي تجعله يؤدي الدور المنتظر منه وأن تعطيه الأولوية علي غيره حيث أنه يمثل أفضل استثمار.

٥ هجرة العلماء

هجرة العلماء ـ أو نزيف العقول ـ معناها انتقال العلماء من الدول النامية إلي

الدول المتقدمة، وتعني كذلك انتقال العلماء من دول متقدمة إلي دول أكثر تقدماً.

وأسباب هجرة العلماء كثيرة، وقد تكون الظروف الاقتصادية سببا من الأسباب. ولكن لا شك أن هناك أسبابا أخري لعل في مقدمتها أن البيئة العلمية في وطننا العربي هي في حالات كثيرة بيئة غير صحية وغير صالحة لتقدم البحث العلمي، وخاصة في تلك الدول التي تكثر فيها هجرة العلماء إلي أوطان أخري أكثر تقدما وأصلح بيئة علمية.

ومما لا شك فيه أن المعوقات التي ذكرناها والتي سوف نذكرها بعد كلها عوامل تؤثر في البيئة العلمية وتجعلها غير مناسبة للعمل العلمي وغير محققة لطموحات العالم الذي يريد أن يتفرغ للعمل العلمي وأن يعطيه عمره كله، وقديما قال أسلافنا العظام إن العلم لا يعطيك بعضه حتي تعطيه كلك، فأنى للعالم في وطننا العربي الحبيب أن يعطي العلم كلَّ نفسه وجل عمره في هذه البيئة العلمية.

والمفروض أن العلماء هم أبناء الدولة ترعاهم وتقدم لهم كل ما يطلبون ليس لمصلحتهم بل لمصلحة الوطن في المحل الأول، فالعالم الحقيقي لا يريد أكثر من أن تتاح له الامكانات المناسبة لكي يتفرغ لعمله، وهو لا يريد شيئاً من متاع الحياة الدنيا الغرور، بل يريد الظروف المناسبة للعمل حتي لا ينشغل بالجري وراء أمور أخري تأخذ من وقته وجهده وطاقته وتحد من حركته وتحطم نفسيته وإرادة البحث فيه. وهذا ما يحدث في كثير من أجزاء وطننا العربي الحبيب حيث نجد العلماء يفتقدون التشجيع المادي والأدبي بحيث يضيع وقتهم وتستنفد طاقتهم في أمور لا صلة لها بالعلم والعلماء.

وهناك أسباب أخري تجعل العلماء يهربون إلي بيئات أفضل ومن ذلك ما يحدث من التحاسد والتباغض والنزوع إلي الفردية، وهذه كلها أمور ضد العمل العلمي، حيث أن العمل العلمي في الدول المتقدمة يسوده الآن روح الفريق.

ولاشك أن كل من له صلة بالبيئة العلمية يعرف الآفات التي تجعل هذه البيئة غير صالحة لعمل العلماء الحقيقيين، وكثيرا ما يجد العالم نفسه يتمثل قول أبي الطيب المتنبي:

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من أمره ما عنانا
وتولوا بغصة كلهم منه وإن سر بعضهم أحيانا
ربما تحسن الصنيع لياليه ولكن تكدر الاحسانا
وكأنا لم يرض فينا بريب الدهر حتي أعانه من أعانا
كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا
ولو أن الحياة تبقي لحي لعددنا أضلنا الشجعانا

وأركز علي البيتين الرابع والخامس فهما يعبران تعبيرا قويا عما يحدث بين العلماء في كثير من الأحوال. وكأنه لا يكفينا قصور الوسائل والمعوقات الأخري حتي نفسد بأيدينا حياتنا وندمر بعضنا. وفرق بين التنافس والتحاسد. فالتنافس صفة محمودة تؤدي إلي سباق مستحب، أما التحاسد فهو صفة مذمومة تأكل في الدين كما تأكل النار في الحطب الهشيم وكذلك تفعل في الحياة العلمية فهي تجعل العالم ينشغل بدرء الطعنات التي توجه إليه وتوقي الخطر الذي يحيط به.

أين ذلك من العلماء أيام ازدهار الحضارة الإسلامية، فالإمام الشافعي رضي الله عنه كان يقول: مذهبنا صواب يحتمل الخطأ ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب. هذا هو أدب الخلاف الذي يجب أن يسود حياتنا العلمية. وقد بدأ الشافعي حياته الفقهية تلميذا للإمام مالك بن أنس رضي الله عنه إمام أهل المدينة علي ساكنها أفضل الصلوات وأتم التسليم، ثم رحل إلي العراق وتتلمذ علي يد الإمام محمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة رضي الله عنهم جميعا. وكان محمد بن الحسن يصله ويعينه بماله. وخرج الشافعي بعد هذا كله بمذهبه الجديد. هذه هي البيئة العلمية التي تخرج رجالا من أمثال الشافعي ومالك وأبي جنيفة ومحمد بن الحسن وغيرهم والتي خلفت لنا تراثا علميا نزهو به علي مر العصور.

أما البيئة العلمية في كثير من أجزاء وطننا العربي فقد ولج إليها من الأبواب

الخلفية دخلاء عليها يعرفون هدفهم جيدا ويصلون إليه بمنتهى الدقة والمهارة وهم ليسوا علماء ولا يريدون أن يعملوا، يسوءهم أن يعمل الناس فيجروهم إلي مسالك غير علمية تستنفد طاقتهم وتضعف من عزيمتهم وتصل بهم في كثير من الأحوال إلي اليأس من صلاح الأحوال والقنوط من العمل، حيث يستوي الذين يعملون والذين لا يعملون بل ربما فاز الأخيرون بكل شئ. وهذه من علامات الساعة كما أخبرنا رسولنا الكريم ﷺ حينما أجاب السائل عن الساعة فقال: إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، فعاد السائل مستوضحا: ومتي تضيع الأمانة، فقال الرسول ﷺ: إذا وُسِّدَ الأمر إلي غير أهله فانتظر الساعة.

وإلي جانب كل ذلك فهناك المشكلات الإدارية والبيروقراطية التي تضيع وقت الباحث في إجراءات تضعف من عزيمته وتضيع من وقته وجهده وطاقته.

وليس معني هذا أننا نوافق علي الهجرة أو نؤيد هؤلاء الذين هجروا أوطانهم، فهؤلاء هربوا من الميدان ولم يؤدوا أية خدمة لأوطانهم بل آثروا الراحة العاجلة، وخدموا أوطانا أخري ليست في حاجة إليهم مثل حاجة أوطانهم، وأصبحوا عونا لبلاد ربما تقف في كثير من القضايا موقف العداء لأوطانهم وهم لا يملكون إلا الولاء لها لأنهم أصبحوا من مواطنيها.

وخلاصة القول في هذه القضية قضية هجرة العلماء أن البيئة العربية وخاصة في الأقطار التي يهاجر منها العلماء، وبسبب ما ذكرت من أسباب وظروف، أصبحت بيئة طرد للعلماء وآثر كثيرون منهم أن يهجروا أوطانهم إلي بلاد أخري تحقق لهم طموحاتهم وتوفر لهم الامكانات، وكل بحسب نيته وكل بحسب مَا يُسِّرَ له. فمن كان يريد علما يجد علما ومن كان يريد مالا وعلما يجدهما وهكذا.

وهذه الهجرة إلي الدول المتقدمة لها أخطر الآثار علي الدول النامية لأن هذه الدول في أمس الحاجة إلي خبرة أبنائها لتعويض التخلف وسد الفجوة الحضارية التي أشرنا إليها، فإذا بهم يهجرونها إلي بلاد متقدمة أصلا، ويسهمون في تقدم تلك البلاد. وأما من بقي من العلماء فهم يصارعون كل الظروف وتختلف

إنتاجيتهم بحسب درجة إيمانهم وصلابتـهم، وقد تصرعهم الظروف وقد يصرعونها ويظلون يعملون وينتجون رغم كل شئ، وقد يصير بهم الأمر إلي العزلة والانكفاء علي النفس فتخسرهم أوطانهم.

٦ ضعف التعاون الاقليمي

كما ذكرنا من قبل فإن البحث العلمي مكلف، وكثير من الدول قد تقصر إمكاناتها وحدها عن القيام به بالصورة المطلوبة، ولذلك فإن الدول العربية في أشد الحاجة إلي التعاون العلمي فيما بينها حتي تكتل الامكانات لتحقيق أهدافها. ثم إن التعاون يؤدي إلي عدم تكرار البحوث. والبيئة العربية متشابهة في كثير من الأمور، ومن ثم تتشابه كثير من القضايا المبحوثة، وبدلا من أن تبحث نفس المشكلة في أكثر من قطر عربي فإن تكتيل الجهود وتقوية التعاون يؤديان إلي عدم إضاعة الوقت والمال في بحث مشكلات بحثت أو تبحث في مكان آخر من الوطن العربي بل توجه الجهود إلي بحث مشكلات اخري.

وكما نعلم فإن العصر هو عصر الكيانات الكبيرة. وإن مجال التعاون في البحث العلمي هو من أبرز المجالات التي يمكن أن يتحقق فيها التعاون لتحقيق إنجازات علمية كبيرة لا تقدر عليها كل دولة عربية علي حدة.

٧ مشكلة المصطلحات

ذكرنا من قبل أن ثمة فجوة حضارية تفصلنا عن الدول المتقدمة. والحقيقة أننا لسنا امتدادا لعصر الحضارة الاسلامية الزاهر. فالحضارة الغربية الحديثة هى العصر التالى لعصر الحضارة الاسلامية وهى امتداد لنموها وتقدمها، أما نحن فقد وقفنا عند ما أنتجه أسلافنا العظماء. ولو شاء الله أن يستمر المد الحضارى الاسلامى وأن يكون عصرنا الحديث فى الوطن العربى والاسلامى هو امتدادا لعصر أسلافنا لاختلف الأمر. ولكن الذى حدث هو أن الحضارة الأوربية هى التى تعد امتدادا

لعصر الحضارة الاسلامية وليست امتدادا للعصور الوسطى الأوروبية المتخلفة. فقد أخذ الأوربيون علوم المسلمين وترجموها الى اللاتينية - لغة العلم آنذاك - ودرسوها فى جامعاتهم فكانت أساس نهضتهم وسر تقدمهم فى العصر الحديث.

وهذا الأمر لاينكره المنصفون من مؤرخى العلوم فى الغرب، وعلى أية حال فإن قضية تأثير الحضارة الاسلامية فى الحضارة الأوروبية من القضايا الصعبة التى تحتاج الى جهد خاص منا نحن، وتحتاج الى تتبع التأثيرات المختلفة وفى جميع الميادين. وإن قياس التأثيرات الفكرية والحضارية ليس من الدراسات السهلة لأن التأثير الكيفى ليس شيئا ملموسا أو محسوسا، وخاصة فى قضيتنا هذه حيث نقلت المؤلفات العربية والإسلامية فى العلوم كافة الى اللغة اللاتينية وليس إلى اللغات الحديثه. كما كان الأغلبية من مؤرخى العلم فى الغرب ينزعون الى أن يعطلوا المسلمين من كل اسهام فى الحضارة الاسلامية ويتعمدون إخفاء تأثير المسلمين فى علومهم وحضارتهم حتى ينسبوها الى علمائهم هم وحضارتهم هم.

والأمثلة كثيرة، فالدكتور على سامى النشار أستاذ الفلسفة الاسلامية الأكبر يرى أن المسلمين هم الذين ابتكروا المنهج التجريبى وليس فرنسيس بيكون. وقد أثبت ذلك فى أحد كتبه الهامة[1]. كما يرى الدكتور عبدالحليم منتصر فى كتابه تاريخ العلم[2] أن مؤرخى العلوم من الغربيين يتجاهلون عصرين من عصور العلم حدثا فى منطقتنا، وهما العصر القديم، أى ماقبل العصر اليونانى، والعصر الاسلامى، ويقتصرون فى تاريخهم على العصر اليونانى ثم يقفزون إلى العصر الحديث حتى ينكروا أى اسهام للمسلمين فى تاريخ العلم.

وهناك أمثلة فردية كثيرة، مثل ابن النفيس والدورة الدموية، فمن المسلم به أن الطبيب العربى ابن النفيس هو الذى اكتشف الدورة الدموية، ولكنهم فى الغرب

---

(١) على سامى النشار. مناهج البحث عند مفكرى الاسلام.
الاسكندرية: دار المعارف، ١٩٦٥.

(٢) عبدالحليم منتصر. تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه، ط ٥،
القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٣.

لاينسبون ذلك إليه، كما أن ابن خلدون هو الذى وضع أسس علم الاجتماع ولكنهم فى الغرب ينسبونه إلي أوجيست كونت، وهكذا الكثير. ومؤرخو العلوم فى الغرب يهدفون من وراء ذلك إلى انكار أى إسهام للمسلمين فى الحضارة الإنسانية حتى يسيطر اليأس على نفوسهم ويقنعوا بدور المتلقى والمستهلك على طول الخط.

وعلى أية حال، فقد حدثت فجوة حضارية تقدر بأربعة قرون تقريبا، حدث فيها تقدم سريع فى الغرب كان انتاجه كما هائلا من المصطلحات العلمية وألفاظ الحضارة، ولم تكن هناك عند الدول الغربية مشكلة مصطلحات لأنها هى التى تنتج المفاهيم والأفكار وتعطيها المصطلحات المناسبة.

ولكن المشكلة تبدأ حينما نحاول نقل هذه المصطلحات إلي العربية، وليس ذلك بسبب قصور فى اللغة العربية، ولكن بسبب تكاثر هذه المصطلحات بصورة هائلة دون أية ملاحقة حقيقية من جانبنا، خاصة وأن جهودنا فى الأصل قاصرة عن متابعة مايصدر. وسوف أعود الى هذه النقطة عند الحديث عن الترجمة سواء ترجمة الكتب أو المواد الأخرى.

ولاشك أن مشكلة تعريب المصطلحات هى من أهم المشكلات التى تجعل الكثير من الباحثين العرب يفضلون كتابة بحوثهم باللغة الانجليزية فهذا أسهل بالنسبة لهم، ولاشك أيضا ان هذه المشكلة من المشكلات الرئيسية التى سوف تواجهنا عند التفكير فى اصدار دائرة المعارف العربية الشاملة، كما انها مما يعوق تقدم العلم ويؤثر على سيولة الكتاب ويؤخر وجود علوم عربية حقيقية.

وقد مرت الحضارة الإسلامية إبان عصر الترجمة بمشكلة مشابهة، كما مرت بها الحضارة الأوربية الحديثة التى نقلت علوم المسلمين، ولكن هذه وتلك تغلبتا على المشكلة فى عصر كان الانتاج الفكرى فيه - ومن ثم عدد المصطلحات - لايقارن بما هو عليه الآن، وبالتالى فلم تكن المشكلة بالحجم الذى هى عليه الآن.

٨ عدم كفاية الخدمات المكتبية والببليوجرافية

إن حديثنا هذا موجه إلى علماء وباحثين وأساتذة ومثقفين من جميع المجالات، ولست أحب حينما أتناول النقص فى الخدمات المكتبيـة والببليوجرافية أن أغرق فى التفـاصيل التى تهم المتخصـص فى هذه المجالات. ولذلك فسوف أكـتفى من هذه القضية بمايمس عامة الباحثين والمثقفين ولا أدخل فى التفاصيل الفنية الدقيقة.

وقد تحدثنا من قبل عن ركائز التقدم وهى التعليم والعلم والمعلومات والاعلام، ثم تحدثنا بسرعة عن دور الاعـلام، وأفردنا الصفحات السابقـة للحديث عن قضايا التـعليم والعلـم، ونتـحـدث الآن عن المعلومـات ممثلة فى الخـدمـات المكتـبيـة والببليوجرافية وخدمات المعلومات.

المعلومات هى كل المعـرفـة والبيـانات والحـقائق المـدونة فى شكل من أشكال التـدوين على النحو الذى أشـرنا إليه فى مـقدمـة الحديث. وعلم المعلومـات هو الجـانب المتطور من علم المكتـبات، ومـراكز المعلـومات هى الصـورة المتطورة من المكتبات. ولذلك نفضل أن نسمى علمنا: علم المكتبات والمعلومات.

ويمكن أن نعرف علم المكتـبات والمعلومات تعـريفا بسيطا بأنـه مجموع القـضايا والعمليات التى تهدف إلى توصيل المعلومات المناسـبة للمستفيد المناسب فى الوقت المناسب وبالقـدر المناسب ويتم تحقـيق ذلك من خلال سلسلة مـن العمليـات تبدأ بالتخطيط لانشاء الخدمات المكتبية بـكل عناصرها من موقع ومبان وأثاث وتجهيزات وتمويل وقوى بشرية، الخ، ثم من خـلال الحلقات الرئيسية فـى سلسلة العمليات الفنية، وهى توفـير مصادر المعلومـات، ثم تنظيم هذه المصادر من خلال الفـهرسة الوصـفية والـتحليل الموضـوعى بكل عناصره من تصـنيف وفهـرسة مـوضوعـية وتكشيف، ثم عن طريق تقـديم الخدمات المكتبـية وخدمات المعلومـات من خلال جمـيع مؤسسات المكتـبات والمعلومات. ويدخل فى ذلك كله اسـتخدام التقـانيات الحديثة وأهمها الحاسب الالكترونى فى جميع مراحل العمل.

وإذا كنا قد نجحنا فى تقديم إطار بسيط للخدمات المكتبية، الخ. فإننا نذكر الآن أن القصور والنقص يشملان كل جوانب هذا الاطار وكل مراحل العمل بدءا باختيار الموقع وإقامة المبنى ومرورا بكل العناصر السابقة حتى تقديم الخدمات.

أما عن الخدمات الببليوجرافية فلن نحاول كذلك الدخول فى التفاصيل العلمية والفنية، ويمكن أن نعرف فقط الضبط الببليوجرافى أو التنظيم الببليوجرافى ومن خلال ذلك يمكن أن نتعرف على الخدمات الببليوجرافية.

يمكن أن نعرف التنظيم الببليوجرافى، وهو أوسع من الضبط الببليوجرافى ـ بأنه دراسة للوسائل التى تمكن من الوصول إلى المعرفة المدونة، وذلك من خلال السيطرة على السجلات المكتوبة والمطبوعة وحصرها وتنظيمها وتقديمها إلى الباحثين من خلال الأنواع المختلفة من الببليوجرافيات: الوطنية والشاملة والموضوعية وغيرها. وكل أنواع الببليوجرافيات تلعب دورها، ولكن النوع الأخير وهو الببليوجرافيات الموضوعية له دور هام وفعال فى البحث العلمى.

وليست الببليوجرافيات بطبيعة الحال شيئا منفصلا عن المكتبات؟ فالخدمات الببليوجرافية تقدم من خلال المكتبات، وهى تكون جزءا من الجهاز الببليوجرافي الشامل للمكتبات الذى يضم الى جانب ذلك فهارس المكتبات والكشافات. ولذلك فسوف نوحد الحديث عنهما.

فإذا انتقلنا إلى دور الخدمات المكتبية والببليوجرافية فى البحث العلمى، فسوف نجد أن الباحث يبدأ أولى خطواته فى البحث بتحديد الموضوع أو المشكلة. وحتى تتضح الصورة أمامه فلابد أن يقرأ فى الموضوع. أى أن البحوث تبدأ فكرتها فى المكتبة وأثناء القراءة يتوقف الباحث عند نقطة أو قضية أو مشكلة يبدو له أنها لم تبحث بالقدر الكافى وأنها تحتاج الى مزيد من القراءة والبحث. وهنا تكون أولى خطواته فى بحثه داخل المكتبة وتتم فيها. وحتى البحوث التطبيقية لا تبدأ فى المعمل أو المختبر وإنما تبدأ أيضا فى المكتبة وأثناء القراءة حتى يوسع الباحث من مداركه أولا، ثم يدرك المشكلات التى بحثت والمشكلات التى تحتاج إلى متابعة البحث.

فإذا ماتوقف الباحث عند نقطة معينة يدرك أنها فى حاجة إلى مزيد من الدراسة والبحث وقرر أن يشرع فى بحثها - إذا مافعل هذا فإن عليه أن يتأكد أولا هل هذه المشكلة قد سبق بحثها أم أنها لم تبحث، وهنا لابد أن يذهب إلى الخدمات الببليوجرافية والتكشيفية فى مجال تخصصه. فإذا وجد أن الموضوع لم يتم بحثه والانتهاء منه، فإن عليه أن يتأكد مرة أخرى إن كان الموضوع قيد الدراسة والبحث وذلك من خلال كشافات أخرى.

فإذا تأكد الباحث أن المشكلة لم تبحث وأنها ليست قيد البحث حينئذ يمكن أن يشرع فى دراستها مطمئنا إلى أنه لايضيع وقته فى بحث مشكلة بحثت أو تبحث. ومن هذا يتضح أن الخطوتين الأولى والثانية فى البحث العلمى تتمان فى المكتبة ومن خلال مصادرها.

ينتقل الباحث بعد ذلك إلى الخطوة الثالثة أو المرحلة الثالثة وهى جمع ببليوجرافية البحث، وهذه أيضا تتم فى المكتبة ومن خلال جهازها الببليوجرافى.

ثم تبدأ المرحلة الرابعة وهى جمع المادة العلمية وهذه المرحلة أكثر المراحل اعتمادا على المكتبة؛ فالباحث فى هذه المرحلة يكاد يقيم فى المكتبة لكى يراجع مصادره ويجمع مادته وهى أطول المراحل.

وإن أى بحث يعتمد على مثلث: الباحث، الموضوع، المعلومات. فإذا افترضنا أن هناك باحثا جيدا فإن هذا الباحث عليه أن يختار موضوعا جيدا، والمكتبة تساعده فى ذلك. ثم عليه بعد ذلك أن يقوم بالبحث نفسه معتمدا على مصادر المعلومات. فإذا كانت مصادر المعلومات كاملة فان دراسته للموضوع سوف تكون كاملة، وإذا اعتمد على مصادر غير كاملة فإن من المرجح أن بحثه لن يكون كاملا وهذا أمر بديهى.

والصورة السابقة تتم بحذافيرها فى الدول المتقدمة، حيث تقف المعلومات سندا للبحث العلمى. أما فى الدول العربية وغيرها من الدول النامية فإن القصور يشمل

كل جوانب أو مراحل العمل. ولذلك فيمكننا أن نفترض أن الأبحاث التى تعتمد على مصادر معلومات عربية وتتم فى المنطقة العربية هى أبحاث غير كاملة، ذلك لأنها تعتمد على مصادر غير كاملة. فنحن لم ننجح حتى الآن فى حصر أو ضبط مصادر المعلومات، ولم ننجح فى تنظيمها، ولم ننجح في إنشاء الببليوجرافيات والكشافات بكل أنواعهما. ولذلك فالباحث عندنا يخبط خبط عشواء ويعتمد على مصادر غير كاملة وطرق ارتجالية أو عفوية فى تتبع مصادر المعلومات.

وتحدث الطامة الكبرى حينما يكون البحث فى موضوع يتعلق بالدراسات الاسلامية أو العربية فيذهب الباحث إلى المصادر العربية وهى المصادر الأصلية أو الأولية Primary Material، فيجدها غير محصورة وغير منظمة، فيضطر إلى اللجوء إلى المصادر باللغات الأجنبية، وهى فى هذه الحالة تعد مصادر ثانوية Sec-ondary، وفى هذا مافيه من خطأ منهجى، إذ يجب الاعتماد على المصادر الأصلية أو الأولية. وليت الأمر يقتصر على الخطأ المنهجى، بل إن المصادر الغربية الثانوية كتبها مستشرقون غربيون وهى موجهة أساسا إلى القارىء الغربى، وكثيرا مايكون هدفها تشويه صورة الإسلام وأهله أمام القارىء الغربى، والنيل من المسلمين وتجريحهم. ولم يسلم من ذلك كتاب الله العزيز ولا شخص الرسول الكريم ﷺ. ولذلك يقع الباحث العربى المسلم فى هذا الشرك فتتلون أفكاره - إلا من عصم الله - بأفكار خبيثة هدفها الطعن فى الإسلام؛ وهذا كله يحدث بسبب النقص فى الخدمات المكتبية والببليوجرافية.

وقد أخذنا تأثير الخدمات المكتبية والببليوجرافية فى البحث العلمى كمثال لوضوح دورها فى هذا المجال بالنسبة للعلماء والباحثين والمثقفين. ولكن دور الخدمات المكتبية والببليوجرافية يشمل كل جوانب الحياة: فالمكتبة المدرسية لها دور مهم فى غرس عادة القراءة وعادة التفكير فى الطفل، والمكتبة العامة لها دورها الهام فى تثقيف الشعب وفى تعليم الكبار، والمكتبة الجامعية لها دورها فى دعم عملية التعليم الجامعى والبحث العلمى الذى يتم فى الجامعة، وهكذا.

كما أن المعلومات لها دورها فى جميع المجالات: السياسية والاقتصادية والزراعية والعسكرية والادارية، وفى اتخاذ القرارات، وما إلى ذلك، وإنما اكتفينا بمثال واحد فقط منعا للاطالة.

وسوف نعود الى هذه النقطة فيما بعد عند الحديث على القراءة.

ومما هو جدير بالذكر أن العوامل السابقة جميعا والتى ذكرناها على أن معوقات للعمل العلمى ـ ومن ثم على الانتاج الفكرى ـ هذه العوامل تصدق بصورة أو أخرى على أجزاء الوطن العربى، قد تصدق كلها على جزء واحد من هذا الوطن أو قد يصدق بعضها فى مكان أو آخر، أو تختلف درجتها هنا أو هناك، فتكون حادة فى مكان وأقل حدة فى مكان آخر من الوطن العربى. ولكن هذه العوامل فى مجملها موجودة ومؤثرة فى كل أجزاء الوطن العربى وتؤثر على مسيرة العلم والثقافة.

ولا ينفى وجود هذه المعوقات وتأثيرها فى أجزاء من الوطن العربى أن تكون هناك نماذج مشرقة هنا وهناك. ولكننا فى موقفنا هذا لايمكن أن نتحدث بلغة الخصوص وإنما نتحدث بلغة العموم والا لضاق المجال عن استيعاب حديثنا، خاصة وأننا نتناول موضوعا شاملا يكاد يغطى كل قضايانا العلمية والثقافية. ومما لاشك فيه أن من يهمهم هذا الحديث سوف يتجاوبون معه بسرعة، وأنا على ثقة من ذلك لأنهم عاشوا كثيرا من التجارب التى أتحدث عنها وربما عانى منها كثير منهم، ولذلك فإن الاشارة هنا تكفى.

ونعود الآن إلى: مراحل العمل العلمى فنتناول كل مرحلة على حدة.

التأليف والمؤلفون

المؤلف هو أهم عنصر فى عملية إنتاج الكتاب. فبدون المؤلف لاتوجد الحلقات التالية جميعا من نشر وطباعة وتوزيع وقراءة، فهذه جميعا تعتمد على عمل المؤلف.

والمؤلف هو المسئول عن متن الكتاب، وهناك إلى جانب التأليف أنواع أخرى من المسئولية عن النص: الترجمة، والتحقيق، والاشراف والتحرير، والمراجعة، والجمع، والتكشيف، وما إلى ذلك من مشاركات ـ وكل المعلومات التى ذكرناها فى الصفحات السابقة تؤثر على عملية التأليف وما يدخل فى حكمه، كما تؤثر عوامل أخرى كثيرة، منها: ضعف العائد المادى الذى يحصل عليه المؤلف؛ ذلك أن تكلفة إنتاج الكتاب تشتمل على نفقات عامة overhead charges غير قابلة للتخفيض، مثل ثمن الورق، وتكاليف الطباعة، والتجليد، وحصة الموزع.

وهذه العناصر كلها فى ارتفاع مستمر. والناشر لايستطيع أن يتحكم فى أى عنصر من هذه العناصر، بل هى التى تتحكم فيه، فلا يجد الناشر أمامه إلا المؤلف المسكين الذى هو سبب عمل الجميع فيخفض مكافأته على قدر مايستطيع، وبعض الناشرين يتمنون أن لو استطاعوا ألا يعطوا المؤلف شيئا على الإطلاق!! وقد سمعت ذلك بنفسى من أحدهم. وهو ناشر حظه من التعليم والثقافة يقترب من القاع وكان يتعامل مع بعض عمالقة الفكر فى وطننا. وكان يقول: يكفى أنه ينشر لبعض الناس. وكان هذا الناشر يتندر ويحكى الطرف عن بعض تعاملاته مع المؤلفين وكأنه صاحب فضل عليهم!!

وهذا كله يؤثر بطبيعة الحال على المؤلف وعلى إنتاجه. فالمؤلف لايسعده أن يرى عمله يستغل أمامه ويستفيد به غيره ولا يحصل هو على ثمرة عمله بينما يحصل غيره ممن لم يبذل الجهد مثله على هذه الثمرة ويحرمه منها، وقد يكون فى أمس الحاجة الى عائد عمله.

ولذلك فإن الذين يستمرون فى بذل الجهد فى التأليف والترجمة، الخ. هم هؤلاء الذين اقنعوا أنفسهم بالحق الأدبى والمعنوى دون الحق المادى. ولهذا فلم نسمع أن هناك مؤلفا فى وطننا العربى عاش من الكتابة فقط وتفرغ لها، وإنما هو يحتاج إلى عمل آخر يعيش منه، بل وأحيانا ينفق منه على إنتاجه العلمى أو الثقافى. وهذا ينقلنا إلى نقطة أخرى، وهى عدم تفرغ العلماء والمؤلفين. ولهذا

يضيع معظم وقتهم فى أعمال أخرى وما تبقى من وقتهم يقضونه فى التأليف والبحث، وقد يشغلهم العمل تماما عن البحث والتأليف وتمتصهم الحياة اليومية والمشاكل المعيشية بأثقالها وهمومها فتستهلكهم تماما، فيكون السؤال: أيعيش أم لايعيش هو وأولاده، والاجابة واضحة.

وهذا مصير سىء جدا للباحث العالم، وهو يؤثر فى مجمله على انتاج المؤلفين. القضية هى أننا لانريد أن يكون البحث العلمى والعمل الثقافى مسئولية الانسان الذى يعمل فى هذا المجال وحده، بل يجب أن يلقى المساعدة والتشجيع حتى لايعمل على مسئوليته فإن أجاد كان بها وإن ضغطت عليه ظروفه توقف.

وقد قارنا فيما سبق بين الانتاج الفكرى العربى والانتاج الفكرى الأجنبى، واتضح من ذلك أن الانتاج العربى لايقارن بمثيله فى الدول المتقدمة. ولاشك أن ضعف العائد المادى وعدم تفرغ المؤلفين وعدم تشجيعهم ورعايتهم هى من عوامل ضعف هذا الانتاج من حيث الكم والكيف.

الترجمة والمترجمون

الترجمة هى فى الغاية من الأهمية بالنسبة للدول النامية، وخاصة فى المرحلة الأولى من مراحل تطورها، فهذه الدول يجب أن تبدأ من حيث انتهت الدول المتقدمة، إذ ليس من المعقول أن توقف عجلة الزمن وتبدأ من حيث بدأت تلك الدول وتقضى القرون الطوال فى الوصول إلى ماوصلت إليه، لأنها إذا فعلت ذلك تكون الأمم المتقدمة قد سبقتها بقرون أخرى. فإذا أردنا أن تبدأ الدول العربية من حيث انتهت الأمم المتقدمة فلا مفر من الترجمة.

وقد بدأت الحركة العلمية عند المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ وفى المدينة المنورة حيث مهاجره ووفاته، وكان القرآن الكريم وحديث الرسول هما مدار الحركة العلمية فنشأت علوم الدين الاسلامى: علوم القرآن، علوم الحديث، علم أصول الفقه، وعلم الفقه، الخ. كما نشأت علوم اللغة العربية مرتبطة بالعلوم الدينية،

وذلك لأنها ضرورية لفهم الكتاب العزيز وأحاديث الرسول ﷺ، ولذلك إعتبرها كثير من العلماء مكملة للعلوم الشرعية حيث أن مالايتم الواجب إلا به فهو واجب.

وبعد أن نشأت العلوم الشرعية واستقرت بدأ المسلمون فى القرن الثانى الهجرى حركة ترجمة للعلوم التى كانت لدى الأمم التى فتحوا بلادها، واقتصرت الترجمة بطبيعة الحال على العلوم العقلية، وهى الشعبة الثانية من العلوم، وتسمى أحيانا علوم العرب فى مقابل علوم العجم، وأحيانا تسمى العلوم الحكمية نسبة إلى الحكمة التى هى الفلسفة، وأحيانا تسمى العلوم الأجنبية أو الدخيلة. ويدخل فى هذه العلوم الرياضيات والطب والكيمياء والفيزياء وغيرها من العلوم الطبيعية.

فالحركة العلمية بدأت بالعلوم الدينية واللغوية، وهى العلوم النقلية التى تكون شخصية الأمة ولا يجوز للأمة أن تستفيد فيها من المصادر الأجنبية، ثم انتقلت إلى ترجمة العلوم العقلية التى وجدتها عند أصحاب الحضارات السابقة. ثم هضم المسلمون هذه العلوم واستوعبوها وأضافوا إليها الكثير والكثير من اسهاماتهم الخاصة.

والنوع الثانى من العلوم تشترك فيه الأمة مع غيرها من الأمم، وهى التى تكون الآن مايعرف بالعلوم البحتة والتطبيقية، وهى علوم لاتتصل بذاتية الأمة وإنما حقائها مشاع عام يمكن أن تسهم فيه كل أمة بقدر مايسعفها علمها وبقدر ماتمتلك من إمكانات بشرية ومادية، فإذا كانت الأمة متخلفة فيها عن غيرها من الأمم فلا مفر أمامها من الترجمة.

وقد فعل الغربيون فى بداية نهضتهم الحديثة نفس الشىء، فقد أخذوا علوم المسلمين وترجموها وتعلموها وجعلوها أساس نهضتهم العلمية التى نشهدها الآن.

فلما أفاق المسلمون فى العصر الحديث وجدوا أنفسهم وقد تأخروا عن غيرهم بعد أن كانوا سادة العالم علما وحضارة، وخاصة فى العلوم البحتة والتطبيقية التى

هى دعامة الحضارة الحديثة، حضارة عصر الصناعة. وقد وجدوا فى هذا الصدد أنه لا مفر أمامهم من تعلم هذه العلوم، فوفدوا إليها أو وفدت إليهم وقطعوا فى ذلك مراحل متفاوتة، لكن الطريق أمامهم لايزال طويلا.

وهذه العلوم تمر فى وطننا العربى بمراحل ثلاث، وهذه المراحل ليست جامعة مانعة، بل كثيرا ماتكون متداخلة:

١ ـ مرحلة النقل والترجمة.

٢ ـ مرحلة المحاكاة والتقليد.

٣ ـ مرحلة الابتكار والتأصيل.

ولا يمكن الدخول الى مرحلة التأصيل الا بعد المرور بمرحلة الترجمة، اللهم إلا فى الأبحاث الأكاديمية الأصيلة، وخاصة تلك التى ترتبط ببحث مشكلات أو قضايا محلية. وحتى فى هذه الأعمال فلا مفر من استفادة حقائق علمية مما ظهر ونضج فى الغرب، فالباحث هنا يترجم لنفسه.

ولا شك أن جل اعتمادنا فى العلوم البحتة والتطبيقية بوجه خاص هو على حقائق نمت ونضجت فى الغرب، ولكى نصل إلى مرحلة التأصيل فلابد من النقل أو الترجمة، سواء أردنا أم لم نرد. وهناك أعمال قد يستنكف البعض من أن يسميها ترجمة، ويرى أن كرامته العلمية تأبى عليه ذلك ويسميها تأليفا، فى حين أنها فى حقيقتها نقل أو ترجمة. وليس من الضرورى أن يكون النقل أو الترجمة لكتاب واحد معين. ولكنه قد يكون لأفكار من كتب أو مقالات متعددة، أى يكون عمل المؤلف مجرد عرض للآراء والأفكار. وهذه لايمكن اعتبارها أعمالا أصيلة، بل هى ترجمة أو نقل، أو تقليد فى أحسن الأحوال.

فالتأصيل الحقيقى هو أن ننتج أفكارنا نحن وحقائقنا ونظرياتنا وأبحاثنا الخاصة بنا ثم نسجلها فى منشوراتنا، وهذا مايحدث فى الدراسات التى لها طابع البحث. ومعنى ذلك أن مرحلة الترجمة مستمرة حتى مع دخولنا مرحلة التأصيل ببعض

الدراسات والأبحاث، فهذه هى الرسالة المستمرة للترجمة: أن نعرف منها ماوصل إليه البحث العلمى فى الدول المتقدمة، وطالما ظلت هذه الدول متقدمة عنا فسوف تستمر الترجمة، بل انها يمكن أن تستمر حتى بعد ذلك.

وبقدر مانسرع فى الترجمة بقدر مانضيق من الفجوة التى تفصلنا عن الدول المتقدمة، الأمر الذى يستلزم وضع خطة شاملة على مستوى الوطن العربى لترجمة كل علم من العلوم وتعريب مصطلحاته. وهذا ينقلنا الى المشكلات التى تعانى منها الترجمة ويعانى منها المترجمون فى الوطن العربى.

أول هذه المشكلات ضخامة الانتاج الفكرى الذى يجب ترجمته قياسا إلى قدرات المترجمين فى الوطن العربى. وهذا أمر بديهى، فإن عدد المؤلفين هناك أكبر بكثير من عدد المترجمين هنا. وقد تحدثنا من قبل عن الانتاج العالمى من الكتب واتضح انه يزيد سنويا عن ستمائة ألف كتاب. وهذا الانتاج يزيد بسرعة هائلة. وحتى تستكمل الصورة، وحتى نوضح مدى جسامة المسئولية نعطى احصاءات أخرى.

سوف نأخذ مجالا واحدا هو الكيمياء: فالانتاج الفكرى فى مجال الكيمياء كما تمثله المستخلصات الكيميائية

Chemical Abstracts

والتى بدأت فى الصدور عام ١٩٠٨، هذا الإنتاج يعطى دلالات كثيرة على سرعة نمو النشر العلمى من ناحية وعلى كثرة الانتاج الفكرى الحالى من ناحية أخرى:

المليون الأول من المستخلصات استغرق الوصول اليه ٣١ سنة

المليون الثانى من المستخلصات استغرق الوصول اليه ١٨ سنة

المليون الثالث من المستخلصات استغرق الوصول اليه ٧ سنوات

المليون الرابع من المستخلصات استغرق الوصول اليه أقل من ٥ سنوات(١).

وهكذا!! فانظر إلى سرعة الدورة ونمو النشر العلمى. فانتاج ٣١ سنة فى بدايات القرن العشرين يمكن الوصول إليه فى النصف الثانى من هذا القرن فى أقل من خمس سنوات. والآن هذا المليون يمكن الوصول اليه فى أقل من سنتين. وهذا مجال واحد من مجالات العلوم البحتة والتطبيقية، وهناك مجالات أخرى كثيرة منها الطب، والهندسة، والفيزياء، الخ.

وهناك التقارير الفنية، وهى شكل حديث نسبيا من أشكال النشر، وعلى درجة عالية من الخطورة والأهمية. ويقدر رصيد الانسان من هذا الشكل بما يزيد على اثنى عشر مليونا والزيادة السنوية تزيد على ستمائة ألف تقرير.

انظر إلى ضخامة الانتاج ثم انظر إلى سرعة النمو، الأمر الذى يعنى ضخامة وتعقد مشكلة الترجمة، ثم زيادة تعقدها، لأننا كلما تقاعسنا عن وضع الخطة وعن الاسراع فى تنفيذها كلما زاد تعقيد المشكلة حيث ينمو الانتاج بسرعة مذهلة.

وإذا كانت المشكلة الأولى هى كثرة الانتاج العالمى، فإن هناك مشكلات أخرى تزيد من تعقيد قضية الترجمة، من هذه المشكلات قلة عدد المترجمين بسبب ضعف العائد المادى الذى يحصلون عليه، والذى لايتناسب مطلقا مع الجهد المبذول، وخاصة فى المجالات العلمية بالمعنى العام؛ ومنها أيضا النظر الى الترجمة على أنها عمل علمى من الدرجة الثانية، وعدم تقديره أو الاعتراف به عند تقويم صاحبه، مع أن الترجمة عمل علمى راق وتنطوى على جهد ومعاناة لايعرفهما إلا من كابدها. وهى بهذا لاتغض من كرامة العالم،وخاصة إذا كان يتخذ منها وسيلة لغاية نبيلة وهدف سام هو توطئة اكناف العلم وتمهيد السبيل أمام وجود علوم عربية أصيلة. وفى هذا الصدد ينطوى تعريب المصطلحات على جهد خاص وله قيمة خاصة.

(١) اعتمدنا فى هذه الاحصائات وغيرها على المصدر التالى:

Donald Davinson. Bibliographic control. 2 nd ed. London: Clive Bingleg. 1981

ورغم هذا فإننى لا أدعو بطبيعة الحال الى اعتبار الترجمة هى أساس التقويم، ولكنى أدعو الى النظرة الى الموضوع من زاوية الأهمية والجهد، والى تقدير المترجمين ماديا ومعنويا حتى يقبل العلماء على الترجمة ولا ينصرفوا عنها.

وأختم حديثى عن الترجمة والمترجمين ببلورة بعض المقترحات :

١ ـ اذا كنا نريد حقا اللحاق بركب التقدم العالمى فلابد من وضع خطة للترجمة لأن الانتاج الفكرى العالمى من الضخامة بحيث لايمكن مواجهته بالجهود الفردية.

٢ـ من الضرورى توجيه الاهتمام نحو اعداد المترجمين، وهذا يتطلب:

(ا) إنشاء معاهد لتأهيل المترجمين.

(ب) الاهتمام بتعليم اللغة العربية واللغات الأجنبية حيث أن الترجمة تحتاج الى تعلم اللغة العربية واللغة المترجم عنها.

(جـ) أن يهتم العلماء بتوحيد المصطلحات وتعليمها للمترجمين حتى لاتستمر حالة الفوضى الحالية.

(د) أن يهتم العلماء بنشر تجاربهم فى مجال الترجمة والتعريب لاثراء المجال وتشجيع الآخرين على الترجمة.

(هـ) اعادة النظر فى القواميس اللغوية بحيث تدخل فيها الألفاظ والاستعمالات الحديثة التى تساعدهم فى الترجمة.

(و) الاهتمام بوضع قواميس للمصطلحات فى كل علم من العلوم تساعد المترجمين على سرعة الوصول الى تعريب الألفاظ وتسهم فى توحيد المفاهيم والمصطلحات.

(ر) تشجيع المترجمين ورفع قدرهم وتقدير رسالة الترجمة فى تقدم العلوم ووضع أسس العلوم العربية فى كافة المجالات.

تمثل المخطوطات العربيـة البعد الزمنى للكتـاب العربى، فهى تشتـمل على نتاج أكثر من اثنى عشر قرنا، وهى تضم ثمرة الحـضارة العربية الاسلامية. وقد دخلت الطباعة إلى مصر ولبنان أولا. ويمكن أن نعتبر تأسيس مطبعة بولاق فى عهد محمد على البداية الحـقيقـية لدخول الطبـاعة إلى الوطن العـربى، وإن تأخرت عن ذلك كثيرا فى معظم الدول العربية.

ويجب ألا ننظر إلى المخطوطات علـى أنها ماض نـعتز به فـحسب، بل إن لـها أهمـيتـهـا فى الحـاضر والمسـتـقبل؛ فـالمخطوطات هى وعـاء الفكر الاسـلامى. وخصوصـية الفكر الاسلامى أنه مستـمد من الاسلام، ولذلك فإنه يمثل شخـصية الأمة الاسلامية ويحدد أهدافها ومبادئها. فاذا أردنا أن تكون لنا أهداف تمثل فكرنا وشخصيتنا فلا مفر من الرجوع الى التراث المخطوط نجـمعه وننشره ونستفيد مما فيه من كنوز فكرية هى أساس حضارتنا فى الماضى والحاضـر والمستقبل، وتمثل الجانب الروحى من هذه الحضارة، كما تمثل العلوم البحتة والتطبيقية الجانب المادى منها.

وهذا هو مايميـزنا عن الأمم الأخرى، ان فكرنا مسـتمد من الاسـلام، وبالتالى فإن الـذى اختـار لنا أهدافنا وفكرنا ووظائفنا ودورنا فى الحـياة هو الخـالق العظيم جلت قدرته، لهذا يجب أن نتلمس رسالتـنا فى الحياة فى تراثنا وألا نلتفت يمنة أو يسرة.

وقضية المخطوطات قضيـة كبرى تحتاج الى معالجة مستقلة، مـثلها مثل كثير من القضايا النـى وردت فى هذه الصفحات، ولكن قضـية المخطوطات لها خصـوصية لأن مشكلات المخطوطات مختلفة عن قضايا الحركة العلمية الأخرى.

ويكفى هنا أن نشـير الى أن الجـهود التى تبـذل لحصـر المخطوطات وجـمعـها ونشرها وتحقيقها والاستفادة منها، هذه الجهـود على قيمتها وأهميتها لاتزال جهودا محدودة جدا، وإذا استمر الايقـاع على هذا النحو فسوف نحتاج إلى آلاف السنين

لكى تحل هذه المشكلة. ولذلك من الضرورى وضع خطة للعمل تشتمل على عناصر متعددة على تفصيل فى ذلك لايتسع المقام له[1]

النشر والطباعة والتوزيع

النشر رسالة وصناعة وتجارة. وتعنى الرسالة أن للناشر رسالة علمية، فعليه أن يبحث عن الأعمال الجيدة، وأن يبحث عن المؤلفين الأفذاذ، وأن يشجع المؤلفين الناشئين. بل إن رسالة الناشر تعنى أن يفكر هو فى المشروعات العلمية والأعمال والمراجع ذات القيمة العلمية وأن يتبناها، ويقدم التسهيلات للمؤلفين حتى يتموها وينفق عليها خلال فترة اعدادها التى قد تطول دون انتظار للعائد السريع.

ورسالة الناشر تعنى أيضا أنه قد يتجه أحيانا إلى نشر أعمال علمية ذات قيمة حتى ولو كانت غير مربحة أحيانا. أى أن اهتمام الناشر برسالته قد تجعله يخسر أحيانا فى سبيل نشر أعمال علمية محققة القيمة وغير مربحة من الناحية التجارية.

فإذا مانظرنا إلى عالم النشر فى وطننا العربى، فسوف نجد أن الصورة مختلفة تماما عما ذكرت. ويمكن أن نقسم الناشرين الى قسمين: الناشرون التجاريون أو الأفراد أو القطاع الخاص، والناشرون الحكوميون أو القطاع العام.

فإذا تناولنا الناشرين الأفراد، فسوف نبحث دون جدوى عن وجود رسالة للنشر لديهم، إذ أن نظرة هؤلاء الناشرين إلى النشر هى نظرة تجارية فى الغالبية العظمى من الحالات، فالغالب على الناشر فى وطننا العربى هو جانب التجارة ولا يفكر كثيرا أو قليلا فى الرسالة، فهو يجرى وراء الكتب الرائجة تجاريا والتى تحقق له أعلى ربح ممكن فى أقل فترة ممكنة، والكثيرون منهم تجار أخطأوا طريقهم إلى

(١) إذا كان المجال لم يسمح بتناول قضية المخطوطات بالتفصيل، ومعها قضية الأصالة والمعاصرة وغيرها من الأمور، فإننى أحيل القارىء الى بحث نشر فى مجلة الدارة بالرياض، وأعيد نشره مع مجموعة أبحاث فى كتابنا: بحوث فى المكتبة العربية الكويت: دار القلم، ١٩٨٥، وهو بعنوان: قضية التراث كما أن البحث الأول فى الكتاب المذكور، وهو بعنوان: الخدمات المكتبية للطفل العربى وسبل تطويرها، يتناول فكر الأمة الاسلامية ورسالتها بتفصيل أوفى

السلعة، فبدلا من أن يتاجر فى أى سلعة أخرى اتجه الى الكتاب.

والكتب الرائجة هى من خمس فئات: الكتب الدينية، وهذه قيمتها ثابتة ولها جمهورها الثابت والمستمر لأن نسبة عالية من القراء متدينون. وهذه الكتب يطبع منها أعداد كبيرة جدا بالنسبة لغيرها من الكتب.

والفئة الثانية هى كتب التراث، سواء كانت كتبا دينية أو لغوية أو أدبية أو تاريخية أو نحوها. وهذه ايضا لها جمهورها الثابت والمستمر وتطبع عددا لا بأس به من النسخ وربما طبعت أكثر من طبعة.

والفئة الثالثة هى كتب الساعة، وهى الكتب التى تتناول قضايا جارية يهتم بها جمهور القراء، وغالبا ماتكون قضايا سياسية أو مذكرات شخصية كتبها شخصيات سياسية أو صحفية أو عسكرية لعبت دورا فى الحياة العامة. وهذه الكتب ليس لها قيمة دائمة مثل الكتب الدينية وكتب التراث ولكنها توزع عددا كبيرا من النسخ لأن جانبا من الجمهور العام يهتم بها. وقد كثرت هذه الكتب فى العقدين الأخيرين وصدرت منها ـ ولا تزال تصدر ـ أعداد كبيرة، وتبارى الناشرون فى الجرى وراءها حتى يحققوا لأنفسهم كسبا سريعا.

والفئة الرابعة هى القصص التى ينشرها كبار الروائيين، وهذه أيضا لها جمهور كبير، وان كان جانب كبير من القراء يحصلون عليها من المكتبات العامة.

أما الفئة الأخيرة ـ الخامسة ـ فهى الكتب الدراسية، وهى توزع عددا كبيرا من النسخ كل سنة وخاصة فى التخصصات ذات الأعداد الكبيرة وان كانت قيمتها العلمية محدودة.

ويحاول كل ناشر أن يسند نفسه من خلال نشره كل سنة لعدد من الكتب من هذه الفئة أو تلك من الكتب الرائجة، ولذلك فإن السؤال الأول الذى يسأله كثير من الناشرين اذا عرض عليه كتاب ينشره ـ هذا السؤال الأول هو أن يسأل المؤلف: كم تتوقع أن يوزع من هذا الكتاب، وهل هو كتاب دراسى، إلخ.

ولسنا نريد أن نقسو على الناشرين، وليس هدفنا مطلقا نقدهم أو تجريحهم فهذا شىء لم يخطر بالبال، وإنما هدفنا أسمى من ذلك بكثير : أن نشخص المشكلات التى يعانى منها العمل العلمى والنشر جزء هام أو حلقة هامة فيه.

والناشر على أية حال قد يكون معذورا فهو لايريد أن ينفق ماله فى كتب يكدسها فى مخازن. ولكن كنا نريد منهم أن يعطوا شيئا من الاهتمام لرسالة النشر، وأن يقدموا الى عالم النشر والكتاب أعمالا علمية لها قيمة محققة حتى وإن لم يكن لها جمهور كبير.

وأنا أكتب هذا الكلام ويحضرنى عدد قليل من الناشرين اهتموا برسالة النشر وقدموا أعمالا علمية لها قيمة محققة دون أن ينتظروا العائد المادى. ويحضرنى فى هذا الصدد الناشر الذى اهتم بطبع كتب الجغرافى العربى العبقرى الأصيل أستاذنا الدكتور جمال حمدان، فقد استمر فى طباعة كتبه حتى بعد أن ترك العمل فى الجامعة. ولكن وجود حالة أو عدة حالات لاينفى القاعدة بل يثبتها.

وهذا ينقلنا الى أهمية وجود الناشر الحكومى الكفء. والحق أن الكتاب ليس شيئا عاديا فهو غذاء العقل، ومن ثم فهو أهم من الخبز بالنسبة للناس، ثم إنه بالنسبة للأمة أفضل استثمار. فاذا كانت الدول النامية تدعم الخبز والسلع الاستهلاكية الأساسية، فإن من الضرورى أن تدعم الكتاب أيضا. ويكون هذا الدعم فى صور متعددة:

١ - تبنى المشروعات العلمية الكبيرة، مثل دوائر المعارف والقواميس وغيرها من الأعمال التى يحجم الناشرون الأفراد عن تبنيها لأنها تحتاج إلى وقت وجهد ومال ولا تحقق عائدا سريعا. وهذه المشروعات العلمية تفتقر إليها المكتبة العربية بشدة، وهى مسئولية الدولة ولا يقدر عليها الأفراد.

٢- تبنى الكتب العلمية الجيدة التى ليس لها جمهور كبير من القراء. أى أن يكون الناشر الحكومى ناشر من لا ناشر له، وإلا فأين يذهب مؤلف جيد ليس لكتبه جمهور لأى سبب من الأسباب.

٣ ـ تبنى قضية الترجمة، وقد تحدثنا عن الترجمة بما فيه الكفاية.

٤ ـ تبنى المؤلفين الناشئين، وهؤلاء هم كتاب المستقبل ومن واجب القطاع العام تشجيعهم حتى يقفوا على أقدامهم.

٥ ـ دعم سعر الكتاب، فلعل من الأسباب التى تؤدى الى عزوف الكثيرين عن القراءة أن أسعار الكتب غالية، وهى تفوق القدرة المالية لمعظم الناس. وهنا يجب على الدولة أن تدعم سعر الكتاب حتى يصدر بسعر يكون فى متناول الجميع.

ومما يؤدى إلى غلاء الأسعار أن مواد صناعة الكتاب من آلات طباعة وأوراق وأحبار وغيرها تخضع للضرائب فى بعض الدول، فالكتاب يعامل فى هذه الحالة مثله مثل أى سلعة أخرى: مصدر دخل للدولة. ويمكن أن يتمثل دعم الدولة للكتاب فى هذا الجانب فى اعفاء الكتاب من أية رسوم حتى بالنسبة للناشرين الأفراد حتى تشجعهم على النشر وتمكنهم من خفض سعر الكتاب.

تلكم هى رسالة الناشر الحكومى، فكيف الحال فى وطننا العربى الحبيب. الواقع أن الناشر الحكومى لايوجد أصلا فى بعض البلاد العربية، وان وجد فهو لايؤدى رسالته بالصورة التى ننتظرها. ومن ابرز عيوب الناشر الحكومى أن الأهواء قد تتدخل فى بعض الأحيان لاجازة كتاب أو عدم إجازته. ومن المشكلات أيضا تفشي البيروقراطية وتأخير ظهور الكتب. ولا بأس هنا من أن أروى تجربة شخصية ولكنها ذات دلالة عامة. فقد كتبت فى مقدمة أحد الكتب التى ترجمتها، وهو من أهم الكتب فى مجاله[1]، كتبت مايأتى:

«ولم تكن ترجمة الكتاب بالأمر السهل، فهو ـ كما سنرى ـ كتاب صعب ومركز، وهو يضم عددا كبيرا من المصطلحات العلمية والفلسفية التى تتطلب ترجمتها جهدا مضنيا، كما استلزم الرجوع الى الترجمات والتعريفات التى توصل

(١) الفهرس المصنف: اسسه وتطبيقاته، تاليف جيسى شيرا، مرجريت إيجان؛ ترجمة عبدالوهاب أبو النور. جدة. شركة مكتبات عكاظ، ١٩٨٣. والقصة لم تنته عند حد ماكتبته هنا فلها بقية فى مقدمة الكتاب.

اليها الفلاسفة والمناطقة العرب ـ قدماء ومحدثين ـ فى مظانها حتى تجيء على وجه الدقة والأمانة.

«وبعد جهد وعناء تمت الترجمة لتبدأ قصة نشر الكتاب وليس بوسعى أن أحكى الآن تفاصيل هذه القصة، فلم يحن الوقت بعد لذلك. ولست أشك فى أن الكثيرين قد مروا بتجربة مشابهة.

«أريد فقط أن أقول أن هذه القصة تمثل مأساة الكتاب المصرى فى حقبة من الزمان ومعه مأساة العمل العلمى، فكل الظروف تقول لك: لاتكتب، لا تؤلف، لا تترجم، لا تعمل، كلها ظروف تنفرك من بذل الجهد. ويكفى أن أقول فى هذا الصدد أن هذا الكتاب قد استغرقت ترجمته ثلاثة شهور، واستغرق نشره ثمان سنوات، وأنه دخل المطبعة وخرج عدة مرات، وأنه قد أنفق عليه لكى ينشر أضعاف ما أنفق عليه من الوقت لكى يترجم، بين دهاليز الموظفين وجبابرة المكاتب كما يسميهم الدكتور حسين مؤنس.

وهذا الكتاب بما تعرض له من معوقات نموذج ممتاز لما يمكن أن يواجه الكتاب العربى فى عالم النشر ولذلك فإننى ذكرته هنا كمثال وليس حكاية شخصية. والجزء الذى حكيته من القصة كان مع ناشر حكومي. وبقية قصة الكتاب مع ناشر تجارى.

والحق أقول أن تجاربى مع النشر والناشرين تحتاج الى حيز أوسع بكثير وقد يأتى يوم من الأيام تكتب فيه هذه التجارب بالتفصيل أما الآن فتكفى الاشارة.

وخلاصة القول أن الناشر الحكومى ليس فى كثير من الحالات أفضل من الناشر الفرد، بل قد يكون الأخير فى بعض الحالات ـ اذا تجاوزنا عن قضية المال ـ أسرع حسما، ولذلك قد يشجع هذا المؤلفين على الاتجاه الى الناشر الفرد.

ومن العوامل التى تعوق تداول الكتاب العربى وتدفقه وانسيابه ـ إضافة إلى ماذكرت ـ عدم وجود شبكات المكتبات العامة فى كثير من الدول العربية.

ولا نقصد بشبكات المكتبات العامة وجود عدد من المكتبات العامة فى أى قطر من الأقطار دون وجود خطة شاملة، بل نقصد وجود شبكات توفر الحد الأدنى من الخدمة المكتبية لكل فرد فى الدولة. هذه المكتبات العامة لها وظائف متعددة، ونخص منها هنا وظيفتين أساسيتين: التثقيف والتعليم؛ تثقيف جموع الشعب، فهى جامعات حرة تؤدى دورها فى تثقيف وتعليم جموع الشعب دون أى قيد من سن أو جنس أو لون أو دين.

ثم دورها فى تعليم الكبار؛ والكبار هم الذين فاتهم سن التعليم النظامى أو وقفوا فيه عند حد محو الأمية ويريدون استكمال تعليمهم. والمكتبات العامة لها دور هام فى تعليم هؤلاء الكبار من خلال برامج وكتب توضع خصيصا لذلك.

نقول أن المكتبات العامة لها دور كبير فى إنسياب الكتاب فهى قاعدة قرائية كبيرة، ومن ثم فهى يمكن أن تشترى عددا كبيرا من نسخ الكتاب الذى تختاره وتسهم فى توزيعه لمصلحة الناشر والمؤلف وفى هذا تشجيع لهما.

ومن العوامل التى تعوق تدفق الكتب وإنسيابها ضعف العلاقات الثقافية بين أجزاء الوطن العربى، وخاصة بين المشرق والمغرب. وثمة حادثة لها دلالة، فقد كنت فى سنة ١٩٧٦ أقوم بجولة علمية موفدا من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم للإشراف على تنفيذ أحد المشروعات العلمية الكبرى لتلك المنظمة، والتفاهم حول كيفية العمل والتنفيذ. وحينما كنت بالمغرب عقدت إجتماعا مع محافظ دار الكتب الوطنية بالرباط. وقد حملنى رسالة شفوية إلى شيخ الأزهر فى مصر آنذاك. وكان شيخ الأزهر قد زارهم وقبل أن أصل إليهم بفترة وجيزة. وقد طلب منى المحافظ أن أُذَكِّر شيخ الأزهر بأن يرسل مطبوعات الأزهر ومجمع البحوث الاسلامية الى دار الكتب الوطنية بالرباط، وكان مما قاله: إن الكتب كانت تصل من مصر إلى المغرب فى عهد المخطوطات وأيام كانت تنقل على الجمال أسرع مما تصل الآن فى عصر الطباعة والطائرات والاتصالات!!

وإذا كنت قد أعطيت هذا المثال وذكرت هذه الواقعة فلأنها تدل دلالة كبيرة على

ضعف العلاقـات بين المشرق والمغرب.. وهناك حقيـقة يعرفها العـاملون فى أقسام التـزويد بالمكتبـات العربيـة وهى أنهم لايعـانون كثـيرا من الكتـاب الأجنبى ولكن معاناتهم كلها مع الكتاب العربى فى كل مراحله.

ثم نأتى إلى آفة أخـرى من آفات النشر فى وطننا العـربى وهى ظاهرة التزوير؛ وهو يعنى تصـوير الكتب وبيعهـا دون إذن من الناشر أو المؤلف. وهذه الآفـة عار على عالم النشر فى بلادنا لأنها ظاهرة غير أخلاقية. لقد عرف عالم الفكر مايعرف بظاهرة السرقات الأدبية Plagiarism فكان الشاعر يأخذ بيتـا أو أكثر أو يسرق معنى بيت من الشعر أو أكثر. وهذه قصص مشهورة فى التراث العربى.

ثم عرف عالم الكتب ظاهرة الاقتباس، ووضعت ضوابط وأصول للاقتباس. أما الآن فإن عالم الكتاب عندنا قد عرف ظاهرتين جديدتين:

اقتباس عمل بأكمله وتضمينه عملا آخر دون ذكر الأصل مطلقا؟

أو تصوير كتب بأكـملها وبيعها دون إذن الناشر أو المؤلف. وفى هذا مـافيه من إفتئات على حقوق الاثنين المادية والأدبية.

والمشكلة هى أنك لاتـسـطيع الرجـوع على المزور لأنه قـد يكون فى قطر آخـر وليس هناك قـضاء تلجـأ إليه. وقـد كان من الممكن حل هذه المشكلة لـو وجدت إتحادات حقيـقية للناشرين، ولكن هذه الاتحادات غـير موجودة أحيانا وغـير فعالة أحيانا أخرى. نحن فى حـاجة إلى مواثيق أخلاقية تضع الأسس لأخـلاقيات مهنة النشر لمنع مثل هذه الأعمال.

ونصل فى نهاية المطاف مع النشر والطباعة إلى أن الكتاب العربى أيضا هو دون مستوى الكتاب الأجنبى فى الطباعة والتجليد مع أن تقديم المعلومات فى وعاء جيد يشجع على القراءة.

القراءة

إن الحلقة الأخـيرة فى الدورة هى مرحـلة القراءة وقبل أن تبـدأ دورة جديدة.

والقراءة هى الهدف النهـائى للتأليف والصناعة، إلا فالمؤلف لديه رسالة مـعلوماتيه يريد أن يوصلـهـا إلى القـارىء. وكل المراحل الـتى تقف بين هاتين النـقطتين هى وسائل لتـحقيق غاية هى القـراءة. وما لم يصل الكتاب إلى القـارىء فإنه لايكون أدى رسالته.

وتصل الكتب إلى القراء عن طريقين: عن طريق الشراء، وعن طريق المكتبات. والنقطة الأولى تـتعلـق بتسـويق الكـتاب أو تـوزيعه وهـى حلقـة مكملة للنشـر والطباعة. وهذه تتطلب الإعلان عن الكتاب فى مظان الطلب عليه حتى يصل إلى القارىء وحينئذ يكون أدى رسالته.

والطريق الثانى هو طريق المكتبات. والمكتبـات ومراكز المعلومات تشترى الكتب وغيرها من المواد وتقوم بتنظيمها وتقديمها للمـستفيدين وهم جمهور القراء، وعلى اخـتلاف فى ذلك بين أنواع المكتـبـات: الوطنية والعـامـة والمدرسيـة والجامـعيـة والمتخصـصة. وقد ذكرنا منذ البـداية أننا لن نتعمق فى تفاصـيل الاجراءات الفنية للمكتبات وأننا سوف نمس الجوانب التى لها عـلاقة بالبحث والقراءة فقط، وأشرنا الى أن القصـور يشمل جمـيع جوانب المكتبـات من المبانى إلى القراءة والخـدمات الببليـوجرافية. ذكرنا ذلـك عن حديثنا على معوقـات العمل العلمى، ولاشك أن معوقات العمل العلمى هى معوقات للقراءة.

ولنا بعد كل هذا أن نسأل السؤال الهام:

هل نحن مجتمع قارىء؟

ولاشك أن قـارىء هذه الصفـحات يعـرف الإجابة!! فـهل ينتظر من مـجتـمع يكتنف العمل العلمى فيه كل هـذه العوائق، ويؤثر على الكتاب والقارىء كل هذه المؤثرات السلبية، هل ينتظر منه أن يكون مجتمعا قارئا. اظن أن الإجابة معروفة.

إن المعوقات السابقة جميعًا قـد أدت إلى أن يتشكل فكر المجتمع تشكيلا معاكسا للقراءة بحـيث أنها فى الأعم الأغلب لا تشكل جـزءا من الاهتمـامات الأساسـية

للفرد أو وسيلة من وسائل قضاء وقت الفراغ، وإنما إتجه أفراد المجتمع إلى وسائل أخرى.

والقراءة ـ علاوة على كل ماذكر ـ تواجه منافسة شرسة من الوسائل الأخرى للتثقيف، ومن الوسائل الأخرى لقضاء وقت الفراغ، مثل الاذاعة والتليفزيون والصحافة وغيرها من الوسائل.

هذه الوسائل توجد فى الدول المتقدمة إلى جانب الكتاب أيضا، ولكن الكتاب يأخذ مكانه الطبيعى بينها. فقد ظهر التليفزيون مثلا فى الدول المتقدمة بعد أن استقرت عادات وتقاليد هذه الدول واستقرت عادات القراءة والبحث والتثقيف فيها، فكان ظهور التليفزيون طبيعيا ووجد جنبا إلى جنب مع الكتاب والمجلة.

أما فى بلادنا العربية فقد ظهر التليفزيون مواكبا لحركة التعليم فى كثير من البلاد، فما كادت هذه الدول تخطو خطواتها الأولى فى التعليم والعلم وقبل أن يبدأ الأفراد فى تكوين عادات القراءة ـ حتى داهمهم التليفزيون بضجيجه فكان الاختيار أمامهم سهلا حيث أن الكثيرين منهم لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى درجة النضج. ولذلك كانت المنافسة غير متكافئة، فلم يحدث التوازن الذى نجده فى الدول المتقدمة.

خاتمة

إن الصورة التى رسمتها هذه المحاضرة هى صورة قاتمة إلى حد كبير، والحقيقة أننى لم أعد بغير الحديث عن الهموم والمشكلات والمعاناة.

والآن هل من سبيل إلى الحل؟ هل هناك أمل؟ الحقيقة أنه لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس، ومادامت هناك حياة فهناك أمل. ولكن كيف السبيل إلى الحل، هذا هو السؤال المهم والملح بعد أن طوفنا بالهموم والمشكلات.

ونقول بداية: بضدها تتميز الأشياء، وأول طريق الشفاء هو تشخيص الداء، ومادمنا قد عرفنا العوائق والمشكلات فإن حل المشكلات يكون بإزالة العوائق.

وهذا كلام جميل ولكنه لايقدم الحل العملى للمشكلات.

وليس من السهل أن نقدم الحل لأدوائنا فى وصفة طبيب وفى كلمات عجلى. فالمشكلات التى تعرضنا لها مشكلات قرون طويلة وآفات أزمان مديدة، وعقد تكونت فى كل مجال من مجالات الحياة.

ويحتاج حل هذه المشكلات إلى أن يجتمع أهل كل علم أو مجال ويحددوا المشاكل ويضعوا الحلول ويبدأوا فى التنفيذ.

ولكن هناك أمورا عامة تضعنا على بداية الطريق. وأول هذه الأمور بلورة فكر الأمة وأهدافها ورسالتها فى الحياة، ثم تحويل هذا الفكر وهذه الأهداف الى استراتيجيات ووظائف يعهد بها إلى المؤسسات التعليمية والعلمية والإعلامية ومؤسسات المعلومات لتنفيذها.

وفكر الأمة الاسلامية وأهدافها ورسالتها صاغها لنا الحق تبارك وتعالى حيث يقول:

«كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله».

«وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس...».

«اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا».

وإذا كانت الشعوب التى يقال عنها متقدمة قد وضعت فكرها وصاغت أهدافها ورسالتها بمعايير البشر، فإننا خير أمة أخرجت للناس ليس بمعايير البشر ولا بمعايير القوة فى عالم اليوم ولكن بقول الحق تبارك وتعالى الذى إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون، فهل ننهض بهذا الدور ونكون جديرين بفضل الله سبحانه وتعالى.

إن تحديد الدور يجب أن يسبق أى شىء آخر حتى لانخبط خبط عشواء ونضل الطريق، فنكون فى أحسن الأحوال تابعين لهذه المدرسة أو تلك من مدارس الفكر مع أن فكرنا خير فكر لأننا خير أمة أخرجت للناس.

يجب إذن أن نحدد ما الذى يجب أن يكون عليه عناصر الفكر الإسلامى وعناصر الثقافة الإسلامية وهذا سوف يحدد لنا الطريق الذى يجب أن نسير فيه لبعث الفكر الاسلامى الحق واعادة المسلمين إلى عناصر قوتهم ليعودوا كما كانوا عليه من قوة وعزة ومنعة وتقدم وإزدهار وليقودوا العالم كما قادوه بالأمس، فهذه هى رسالة الأمة الإسلامية، تصديقا لكلام المولى جلت قدرته.

فإذا نظرنا إلى مانحن عليه الآن وما يجب أن نكون عليه لوجدنا البون شاسعا والشقة بعيدة والفجوة هائلة: أمة أراد لها الله أن تكون خير أمة أخرجت للناس، هى ماهى عليه الآن من تخلف وتبعية وتشتت وإنقسام.

نحن نحتاج إذن إلى أن نحدد أولا ملامح الفكر الإسلامى الحق، وملامح الشخصية الإسلامية والثقافة الإسلامية الأصيلة، وأن نميز الأصيل من الدخيل، والثمين من الزائف. وهذا يحتاج منا إلى الرجوع إلى ينابيع الفكر الإسلامى الحق، ثم نعرض عليه مصادر الثقافة المعاصرة ومكوناتها لنميز الخبيث من الطيب ونأخذ مايتسق معه ونلفظ ماعداه.

وبعد صياغة الفكر وتحديد الأهداف فإن الحل يبدأ بإصلاح التعليم ومعه المكتبات، ومن هنا أهمية المكتبات المدرسية لأننا يجب أن نبدأ بتعليم الطفل العربى المسلم لاعادة تجديد الفكر وبناء الإنسان.

والله سبحانه من وراء القصد وهو ولى كل نعمة وهو حسبنا ونعم الوكيل.